إرهابهم وإرهابنا*

إقبال أحمد

في الثلاثينيّات والأربعينيّات من القرن العشرين كانت المنظّمات السريّة اليهوديّة في فلسطين تُنْعت بأنّها «إرهابيّة.» ثم حصلتْ أمور جديدة. فمع حلول عام ١٩٤٢ كانت الهولوكوست تجري على قدمٍ وساق، ويتشكّل نوعٌ من التعاطف الليبراليّ الغربيّ مع الشعب اليهوديّ. وفجأةً بات الإرهابيُّون اليهود في فلسطين، الذين كانوا صهاينةً، يوصفون مع حلول عاميْ ١٩٤٤ و١٩٤٥ بـ «المقاتلين من أجل الحريّة.» لقد كان رئيسا وزراء إسرائيليّان على الأقلّ، من بينهما مناحيم بيغن، يوصفان بالإرهابيّيْن. وتستطيعون أن تجدوا في بعض الكتب ملصقاتٍ تَحْمل صورةَ كلّ منهما مذيَّلةً بعبارة: «إرهابيّ. جائزة كذا لِمَنْ يَقْبض عليه.» وكان أعلى مبلغ اطّلعتُ عليه مكافأةً لمن يأتي برأس الإرهابيّ مناحيم بيغن هو ١٠٠ ألف جنيه إسترلينيّ.

ولكنْ بين عامَيْ ١٩٦٩ و١٩٩٠ احتلّت منظمةُ التحرير الفلسطينيّة مسرحَ الأحداث بوصفها منظمةً إرهابيّةً. ووَصَفَ ويليام سافاير، وهو حكيمُ الصحافة الأميركيّة من جريدة **نيويورك تايمز**، ياسر عرفات مرارًا وتكرارًا بأنّه «زعيم الإرهاب.» لكنْ في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٨ سلاّني إلى حدٍّ ما أن أرى صورةً لياسر عرفات إلى يمين الرئيس بيل كلينتون، وإلى يساره رئيسُ الوزراء الإسرائيليّ بنيامين ناتانياهو. كان كلينتون يَنْظر باتجاه عرفات، وكان عرفات يبدو ـ حَرْفيّاً ـ أشبهَ بفأرٍ خنوع. قبل بضع سنوات كان عرفات قد اعتاد الظهور بهيئة متوعِّدة وبمسدّس مربوط إلى حزامه ذي هيئة متوعِّدة هو أيضًا. أنتم تذْكرون تيْنك الصورتيْن، وستذْكرون الصورةَ التالية.

ففي عام ١٩٨٥ استقبل الرئيس رونالد ريغان مجموعةً من الرجال المُلْتحين. كنتُ في تلك الأيام قد كتبتُ عن هؤلاء الرجال في جريدة **نيويورك تايمز**. كانوا رجالاً ملتحين ذوي هيئاتٍ ضارية، يَعْتمرون عماماتٍ فيَبْدون وكأنّهم جاءوا من قرنٍ آخر. استقبلهم الرئيس ريغان في البيت الأبيض، ثم تحدّث إلى الصحافة، فأشار إليهم ـ وأنا على يقين أنّ بعضكم سيَذْكر تلك اللّحظة ـ وقال: «هؤلاء هم المعادِلون الأخلاقيُّون لآباء أميركا المؤسِّسين.»[1] هؤلاء الرجال كانوا المجاهدين الأفغان! آنذاك كانوا يحاربون، وسلاحُهم في أيديهم، «إمبراطوريّةَ الشرّ» [الاتّحادَ السوفياتيّ]. لقد كانوا المعادِلين الأخلاقيّين لآبائنا المؤسِّسين!

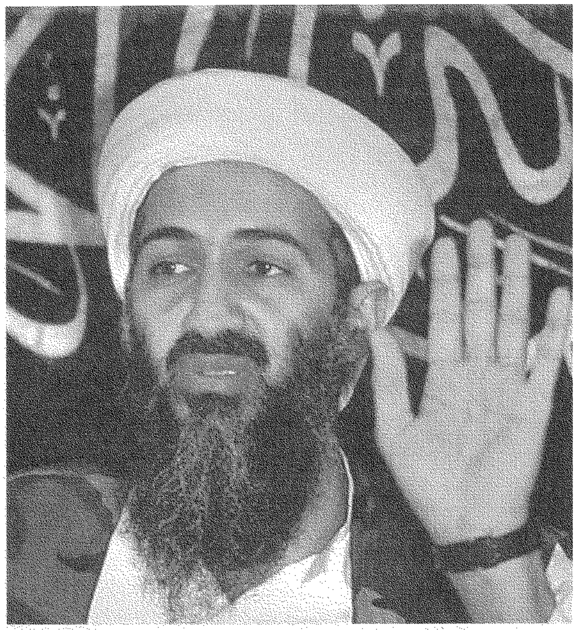

كان بن لادن عام ١٩٨٥ المعادل الأخلاقيّ في أميركا لجورج واشنطن وتوماس جيفرسون!

في آب (أغسطس) ١٩٩٨ أمَرَ رئيسٌ أميركيٌّ آخر بقصفٍ صاروخيٍّ من البحريّة الأميركيّة المتمركزة في المحيط الهنديّ بهدف قتل أسامة بن لادن ورجاله في معسكرات أفغانستان. ولا أحبّ أن أُحْرِجكم بأن أذكّركم بأنّ السيِّد بن لادن، الذي أُطلق عليه ١٥ صاروخًا أميركيّاً أُرْسلتْ إلى أفغانستان، كان قبل أعوام قليلة فقط من هذه الحادثة المعادلَ الأخلاقيّ لجورج واشنطن وتوماس جيفرسون. ولكنّه غَضِبَ لأنّه أُسْقِطَ من مرتبة المعادِل الأخلاقيّ لآبائكم المؤسِّسين، فراح يُفْرغ غضبَه بطرق مختلفة. وسأعود إلى هذا الموضوع بشكلٍ أكثر جديّةً بعد لحظات.

خصائص المقاربة الرسميّة للإرهاب

هكذا ترون أنّني استحضرتُ كلَّ هذه الحكايات لأبيِّن لكم أنّ مسألة الإرهاب مسألةٌ معقَّدةٌ إلى حدٍّ ما. فالإرهابيُّون يتبدّلون؛ وهذه هي الخاصيّة **الأولى** للمقاربة الرسميّة للإرهاب: ذلك أنّ إرهابيَّ الأمس بطلُ اليوم، وبطلَ الأمس إرهابيُّ اليوم. وهذا أمرٌ خطير في عالم الصُّوَر المتغيِّرة دومًا، عالمٍ علينا أن نحافظ فيه على رجاحة عقولنا كي نَعْلم ما الإرهابُ وما ليس بإرهاب، وكي نَعْلم ـ وهذا هو الأهمّ ـ أسبابَ الإرهاب وكيف نُوقفه.

النقطة المهمّة **الثانية** هي أنّ الموقف الرسميّ المتناقض يَتجنّب التعريفات بالضرورة. فإذا لم تكن تَنْوي أن تكون منسجمًا مع

* ـ محاضرة بالإنكليزيّة، بعثها إليّ الصديق دايفيد برسميان، للكاتب الباكستانيّ العظيم إقبال أحمد (توفّي في إسلام آباد في ١١ أيار ١٩٩٩). وقد ألقاها في جامعة كولورادو في بولدر في ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٩٨. والآداب تترجم محاضرة أحمد بعد ثلاثة أعوام على إلقائها لأنّها تسلّط الضوءَ على ذهنيّة «الإرهاب» ذي الصلة الوثيقة بالولايات المتحدة، وعلى شخصيّة بن لادن الذي التقاه إقبال شخصياً. (م)

١ ـ آباء أميركا المؤسِّسون: مندوبو الولايات عند اجتماعهم لتوقيع «الميثاق الدستوريّ» في فيلادلفيا عام ١٧٨٧.

نفسكَ فإنَّكَ لن تَسْتخدم التعريفات. ولقد فَحَصْتُ ٢٠ وثيقةً أميركيَّة رسميَّة عن الإرهاب، ليس ثمّة واحدةٌ منها تعرِّف هذه الكلمة. كلُّها تَشْرح الإرهابَ، تعبِّر عنه بشكل انفعاليّ وسِجاليّ من أجل استثارة عواطفنا بدلاً من ممارسة ذكائنا. سأعطيكم مثالاً واحدًا نموذجيّاً فقط. ففي ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤، تحدّث جورج شولتز في كنيس پارك آفنيو في نيويورك، وكان يومَها وزيرَ خارجيَّة الولايات المتحدة. كان خطابه طويلاً عن الإرهاب. وفي نشرة وزارة الخارجيَّة عن الإرهاب، وهي من سبع صفحات لا فراغَ بين سطورها، ليس ثمّة تعريفٌ واحدٌ للإرهاب. كلُّ ما نَعْثر عليه هو التالي: «الإرهاب بربريَّةٌ حديثةٌ نسمّيها الإرهاب!» هذا هو التعريف رقم واحد. وأمّا التعريف رقم ٢ فَأَلْمَعُ من سابقه: «الإرهاب شكل من أشكال العنف السياسيّ.» ألستم مدهوشين؟ إنَّه شكلٌ من أشكال العنف السياسيّ، على حدّ قول جورج شولتز وزيرِ خارجيَّة الولايات المتحدة! التعريف الثالث هو: «الإرهاب تهديدٌ للحضارة الغربيَّة.» التعريف الرابع: «الإرهاب خَطَرٌ على القيم الروحيَّة الغربيَّة.» ألاحَظْتم؟ أتُخْبِرُكُمْ هذه التعريفاتُ أيَّ شيء باستثناء إثارة عواطفكم؟ إنَّهم لا يعرِّفون الإرهابَ لأنَّ التعريفات تتطلّب التزامًا بالتحليل، وبالإدراك الواعي، وبالتقيُّدِ بمعايير ما من التماسك المنطقيّ. وهذه هي الخاصّيَّةُ الثانيةُ للأدبيّات الرسميَّة عن الإرهاب.

الخاصيَّة **الثالثة** هي أنَّ غياب التعريفات لا يَمْنع المسؤولين الرسميِّين من أن يعمِّموا لِيَشْملوا العالَمَ بأجمعه. فهم قد لا يعرِّفون الإرهاب ولكنَّهم مع ذلك يعتبرونه تهديدًا للقيم الأخلاقيَّة في الحضارة الغربيَّة، بل تهديدًا للبشريَّة وللنظام القويم، ولهذا يجب أن نَسْحقه في جميع أنحاء العالم. إنَّ على انتشارنا، كما يقولون، أن يطول العالَمَ، من أجل أن نَقْتل الإرهابَ. وفي خطاب شولتز نفسه يجيء ما يلي: «ليس هناك شكٌّ في قدرتنا على استخدام القوّة حيث ومتى نُحتاج من أجل مواجهة الإرهاب.» إذن، ليس هناك حدّ جغرافيّ لمكافحة الإرهاب. وفي يومٍ واحدٍ ضَرَبَت الصواريخُ أفغانستانَ والسودانَ معًا. هذان البلدان يَبْعدان ٢٣٠٠ ميل الواحدُ منهما عن الآخر، ولكنَّهما قُصِفا بصواريخ يَمْلكها بَلَدٌ يَبْعد حوالى ٨ آلاف ميل.

الخاصيَّة **الرابعة**: مزاعمُ الأقوياء تَشْمل العالَمَ، وهي كليَّةُ المعرفة أيضًا. فلسانُ حالهم: نحن نَعْرف أين هم الإرهابيُّون، ولذلك نَعْرف أين نَضْربهم. لدينا الوسائلُ لنَعْرف ذلك. لدينا أدواتُ المعرفة. نحن عليمون. يقول شولتز: «نحن نَعْرف الفرقَ بين الإرهابيِّين والمقاتِلين من أجل الحريَّة، وحين نتطلّع من حولنا لا مشكلةَ لدينا في تمييز هؤلاء عن أولئك.» وحده أسامة بن لادن لا يَعْرف أنَّه كان حليفًا للأميركان ذاتَ يوم، ثم بات عدوّاً لهم في يومٍ تالٍ؛ فهذا أمرٌ يُربِكُ بن لادن كثيرًا! وسأعود إلى قصّته عند نهاية حديثي، وهي قصّة حقيقيَّة.

الخاصيَّة **رقم ٥** للمقاربة الرسميَّة للإرهاب: هذه المقاربة تتحاشى السببيَّة. فهي تقول إنَّه ليس عليكَ أن تَنْظر إلى أسباب صيرورة المرء إرهابيّاً. أسباب؟ أيَّة أسباب؟ ذلك أنّ هذه الأسباب ستستدعي أن نَنْظر إلى هؤلاء الناس الإرهابيِّين وأن نتعاطفَ معهم. هاكم مثالاً آخر. أوردتْ صحيفة **نيويورك تايمز** في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥ أنَّ وزير خارجيَّة يوغوسلافيا ـ أتذْكرون حين كان ثمّة يوغوسلافيا؟ ـ طلَبَ من وزير خارجيَّة الولايات المتحدة أن يأخذ في الاعتبار أسبابَ الإرهاب الفلسطينيّ. تقول الجريدةُ، وأنا الآن أَقْتبس منها، إنَّ وزير الخارجيَّة جورج شولتز «احمرَّ وجهُه قليلاً، ثم ضَرَبَ الطاولة وأَخْبر وزيرَ الخارجيَّة الضيفَ أنْ ليست هناك علاقةٌ للإرهاب بأيّ سبب. نقطة على السطر.» لِمَ البَحثُ عن أسباب؟

الخاصيَّة **رقم ٦** للمقاربة الرسميَّة للإرهاب: الاشمئزاز الأخلاقيّ الذي نَشْعر به حيال الإرهاب يجب أن يكون انتقائيّاً. علينا أن نخاف من إرهاب تلك المجموعات التي لا يوافِقُ عليها المسؤولون. وعلينا أن نوافِقَ على إرهاب المجموعات التي يوافِقُ عليها المسؤولون. ولهذا يقول الرئيس ريغان: «أنا مع الكونترا.» لقد قال ذلك فعلاً. ونحن نَعْرف أنَّ الكونترا في نيكاراغوا كانوا، وفقًا لأيّ تعريف، كلَّ شيء إلاّ إرهابيِّين.[1] ولكي تَبْتعد وسائلُ الإعلام عن المسؤولين اهتمّت بالرأي السائد عن الإرهاب!

تستبعد المقاربةُ السائدةُ للإرهاب من الاعتبار إرهابَ الحكومات الصديقة. وسأعود إلى هذه المسألة لأنَّها غَفَرتْ ـ من بين ما فعلَتْ ـ إرهابَ پينوشيه، الذي قَتَلَ واحدًا من أقرب أصدقائي، هو أورلاندو لوتوليِيه، وغَفَرَتْ إرهابَ ضياء الحقّ، الذي قَتَلَ عددًا كبيرًا من أصدقائي في باكستان. كلُّ ما أودّ قولَه لكم ـ من حساباتي الجاهلة ـ أنَّ نسبة الأشخاص الذين قُتِلوا بسبب إرهاب الدولة الذي مارسه ضياءُ الحقّ، وپينوشيه، والنمطُ الأرجنتينيّ والبرازيليّ والأندونيسيّ من الإرهاب، إلى القتل الذي ارتكبتْه منظّمةُ التحرير الفلسطينيَّة وغيرُها من المنظّمات الشبيهة لَهِي على أقلّ تقديرٍ مئةُ ألف قتيل إلى قتيلٍ واحد. هذه هي النِّسْبة!

لكنَّ التاريخ للأسف يَعْترف، ويُبْرز إلى الضوء، القوَّةَ لا الضعفَ. ولذلك أُبرزتْ إلى الضوء، تاريخيّاً، المجموعاتُ المهيمنةُ. فزمنُنا نحن، أي الزمنُ الذي بدأ بيومنا هذا [١٢ تشرين الأول/أكتوبر] الذي يُصادف ذكرى اكتشاف العالم الجديد عام ١٤٩٢ على يد كولومبوس، زمنٌ من الهولوكوستات المذهلة التي لم تُدَوَّنْ [في التاريخ الرسميّ للأقوياء]. لقد مُحِيتْ حضاراتٌ عظيمةٌ: أُفْنِيَ

* ـ واضح أنَّ الكاتب يقول ذلك على سبيل السخرية. (م)

نصف إنتاج الأدوية في السودان دُمِّر بفعل الضربة الأميركيّة عام ١٩٩٨

شَـعْبُ المايا، وشـعبُ الإينكا، وشـعبُ الأزتك؛(١) أُفْنِيَ الهنودُ الأميركيُّون والهنودُ الكنديُّون كلُّهُم. لم تُسْمَعْ أصواتُهم، إلى يومنا هذا، بشكلٍ كامل. صوتهم بدأ يُسْمَعُ، ليس ثمّة شكٌّ في ذلك، ولكنّه لا يُسْمع إلاّ حين تُعاني القوّةُ المهيمِنة، حين يبدو أثرٌ وإنْ ضئيل من الكُلْفة التي تُجبِر تلك الشعوبُ أعداءها على دَفْعها، كأنْ يُقتَلَ واحدٌ مثلُ كاستر أو يحاصَرَ آخرُ مثلُ غوردون.(٢) فعندها فقط يَعْلم الناسُ أنَّ هناك هنودًا يحاربون، وأنَّ هناك عربًا يحارِبون ويموتون.

النقطة الأخيرة التي سأتحدَّث عنها في هذا القسم هي أنَّ سياسة الولايات المتحدة في فترة الحرب الباردة رَعَت الأنظمةَ الديكتاتوريَّةَ واحدًا تلو الآخر. فسوموزا، وباتيستا، وجميعُ أنواع الطغاة كانوا أصدقاء لأميركا. أنتم تَعْرفون هذا. وكان ثمّة سببٌ لذلك. لستُ أنا ولا أنتم مسؤولين عن ذلك. لسنا مسؤولين عن دعم الكونترا في نيكاراغوا، ولا المجاهدين في أفغانستان، ولا الآخرين في السلفادور، إلخ.

دوافع الإرهاب

والآن لننظرْ إلى الجهة المقابلة. ليس ثمة في الجهة المقابلة أيضًا خيرٌ كثير. وعليكم ألاّ تتخيَّلوا أنّني جئتُ لأَمْدح الجهةَ المقابلة! لكنْ لا تَنْسوا التوازنَ، ولا تَنْسوا اللاتوازنَ، واسألوا أنفسَكم أولاً: «ما هو الإرهاب؟» يجب أن تكون مهمَّتُنا الأولى هي تعريفَ هذا الشيء اللعين، أن نسمّيَه باسمه الحقيقيّ، أن نَصِفَه وصفًا ما مختلفًا عن أنّه «المعادلُ الأخلاقيّ لآبائنا المؤسِّسين» أو أنّه «عارٌ أخلاقيٌّ على الحضارة الغربيّة.» سأَنْقل لكم ما وَرَدَ في **معجم وبستر لطلاّب الكليّات**: «الرعب terror هو خوفٌ حادٌّ وبالغ.» ويورد المعجم كلمتيْ «مُرْهِب» و«إرهاب» فيقول: «استخدام أساليبُ مُرْهبة/إرهابيّة terrorizing للحُكْم أو لمقاومةِ الحُكْم.» هذا التعريف البسيط ذو فضيلة عظيمة واحدة، وهي الإنصاف. فهو يركِّز على استخدام العُنْفِ القاهر، العنفِ الذي يُستعمَل بشكلٍ غيرِ شرعيّ، خارج إطار الدستور، من أجل الإكراه. وهو تعريفٌ صحيح لأنّه يُحاكِمُ الإرهابَ بما هو حقّاً، سواء أكان مرتكِبُه من الحكومات أم من الأفراد.

---

١ ـ المايا: شعب هنديّ من شعوب أميركا الأصليّة عاش قبل غزو كولومبوس، وعُرف بحضارته الرفيعة. الإينكا: شعبٌ هنديّ من شعوب أميركا الأصليّة أيضًا، أسّس إمبراطوريّةً في البيرو (حوالى العام ١٤٠٠) قبل الغزو المذكور. الأزتك: من الشعوب النهواتليّة، أسّس إمبراطوريّةً مهمّةً في مكسيكو الوسطى قبل أن يحتلّها كورتيز عام ١٥١٩. (م)

٢ ـ جورج أرمسترونغ كاستر (١٨٣٩ ـ ١٨٧٦): جنرال أميركيّ قاتَلَ الهنود. قُتل هو وكلُّ رجاله (وعددهم ٢٦٦) في إحدى المعارك. شارلز جورج غوردون (١٨٣٣ ـ ١٨٨٥): جنرال بريطانيّ. كان حاكمًا إداريّاً في مصر والصين. قتله ثوارُ السودان. (م)

ألاحظتُم شيئًا؟ لا مشاعرَ انفعاليَّةً في هذا التعريف. فهو لا يتحدَّث ما إذا كان سببُ الإرهابُ مُحِقّاً أو غيرَ مُحقّ. بل يتحدَّث عن الإجماع، والقُبول، وغيابِ الرضى (القَهْر)، والشرعيّةِ، وغيابِ الشرعيّة، والدستوريّة، وغيابِ الدستوريّة. ولماذا يكون علينا أن نَتْرك الانفعالات جانبًا؟ لأنّ الانفعالات تتغيَّر، ولا تغيِّر. لقد حدَّدتُ في عملي عدّة أنواع من الإرهاب. **الأوّل**: إرهابُ الدولة. **الثاني**: الإرهابُ الدينيّ، أي الإرهابُ الذي يُلْهِمُه الدِّينُ، كقتل الكاثوليك للبروتستانت، والسُّنَّةِ للشّيعة، والشّيعةِ للسُّنة - يا إلهي! - ويمكن أن تسمُّوه «الإرهابَ المقدَّس» إنْ شئتم. **الثالث**: إرهابُ الجريمة، مثل إرهاب المافيات. **الرابع**: الإرهاب المَرَضيّ. أنتَ مريض. تريد اهتمامَ العالم كلِّه. عليكَ أن تَقْتل رئيسًا للجمهورية. وستفعل. وقد تَحْتجز باصًا. **الخامس**: الإرهاب الذي تمارسه المعارضة أو يمارسه فريقٌ خاصّ، هنودًا أو فيتناميِّين أو جزائريِّين أو فلسطينيِّين أو من جماعة بادرْ - ماينهوف [الألمانيَّة] أو الألوية الحمراء [الإيطاليَّة]. لا تَنْسوا هذه الأنواعَ الخمسةَ من الإرهاب. ولا تَنْسوا أمرًا آخر إضافيّاً: وهو أنَّ هذه الأنواع قد تتلاقى. فقد تبدأ بإرهابٍ احتجاجيّ، ثم يُجنّ جنونُك، فتصبح مَرَضيّاً، وتواصِل إرهابَكَ.

إنَّ الإرهابات قد تتلاقى. فإرهابُ الدولة قد يتَّخذ شكلَ الإرهاب الذي تقوم به جماعاتٌ خاصة. نحن نَعْرف، مثلاً، عصاباتِ القتل في أميركا اللاتينيَّة أو باكستان. هناك، الحكومة هي التي وَظَّفَتْ أفرادًا لقتل خصومها. ليس الأمر رسميّاً تمامًا هناك؛ بل هو مُخَصْخَص! وقد يُجَنّ الإرهابيُّ السياسيُّ ويصبح مَرَضيّاً. وقد يَنْخرط المجرمُ في السياسة. ففي أفغانستان، وفي أميركا الوسطى، وَظَّفَتْ وكالةُ المخابرات المركزيَّة الأميركيَّة في عمليّاتها السريَّة باعةَ المخدِّرات. غالبًا ما تَخْتلط المخدِّراتُ بالبنادق: فالتهريبُ يكون لكلّ شيء في الغالب.

من بين أنواع الإرهاب المذكورة لا يتمّ التركيزُ [في الإعلام الرسميّ] إلاّ على نوع واحد، هو أقلُّ الأنواع كلفةً من حيث ضحاياه البشريَّةُ والماديَّةُ. أكبرُ الأنواع كلفةً هو إرهاب الدولة. يليه الإرهابُ الدينيّ، مع أنَّ هذا تراجَعَ نسبيّاً في القرن العشرين - وأكلافُه هائلةٌ إنْ قرأتم التاريخَ. يلي ذلك الإرهابَ من جهة الكُلْفة إرهابُ الجريمة. وبعده الإرهابُ المَرَضيّ: وقد بيَّنتْ دراسة لشركة «راند» قام بها برايان جَنْكِنْز أنَّ ٥٠٪ من أعمال الإرهاب التي ارتُكِبتْ خلال عشر سنوات تَنْتهي بعام ١٩٨٨ لم يَكُنْ لها أيُّ سبب سياسيّ على الإطلاق. لا سياسة؛ فقط جريمةٌ ومَرَض. إنّ التركيز الإعلاميّ هو إذن على إرهاب واحدٍ، هو الإرهاب السياسيّ كالذي تمارسه منظمة التحرير الفلسطينيَّة، وبن لادن، ونحوُهما. لكنْ لماذا يقوم مثلُ هؤلاء بهذا العمل؟ وما الذي يحرّك الإرهابيّ؟

سأرمي إليكم بالدوافع سريعًا. أولاً: حاجةُ الإرهابيّ إلى أن يُسْمَع. تصوَّروا، نحن نتعامل مع مجموعةٍ أقليَّة، هي الإرهابيّ السياسيّ أو الخاصّ. عادةً، وهناك استثناءات طبعًا، ثمّة جهدٌ يَبْذله المرء لكي يُسْمِع همومَه، لكي يُسْمِع أشجانَه للناس. حين لا يَسْمعونها، تتحرّك أقليّةٌ ما، فتصفِّقُ الغالبيَّةُ لها استحسانًا. خُذ الفلسطينيِّين مثلاً، الذين يُعَدُّون قمَّةَ الإرهاب في زمننا. هؤلاء هُجِّروا عام ١٩٤٨. وبين عام ١٩٤٨ ومنتصف الستينيَّات ذهبوا إلى كلّ محكمة في العالم، وقَرعوا كلَّ بيتٍ في العالم. فقيل لهم إنَّهم هُجِّروا لأنّ إحدى الإذاعات العربيَّة طلبتْ منهم أن يَرْحلوا عن أرضهم؛ وهذه كذبة. لم يستمع أحد إلى الحقيقة التي يقولها الفلسطينيُّون. ولذا اخترعوا في النهاية نوعًا جديدًا من الإرهاب، هو اختراعُهم هُمْ بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وأَقْصد: خَطْف الطائرات. وبين ١٩٦٨ و١٩٧٥ حَمَلوا العالَمَ من أذنيْه. جَرُّونا جرّاً، وقالوا: «اسمعوا. اسمعوا.» وسَمِعْنا. ومازلنا إلى الآن لَم نُنْصِفْهم، ولكنَّنا على الأقلّ نَعْرف أنَّهم موجودون. بل إنَّ الإسرائيليِّين أنفسهم يُقرّون بذلك. تذكَّروا أنَّ غولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل، قالت عام ١٩٧٠ أنْ لا وجود للفلسطينيِّين. ولكنَّهم موجودون اليوم حقّاً، ونحن [الإسرائيليِّين والأميركيِّين] نَغشُّهم في أوسلو. على الأقلّ ثمّة اليوم أشخاصٌ لنغُشَّهم! لا نستطيع أن نرميهم خارجًا هكذا. وهكذا نرى أنَّ حاجة «الإرهابيّ» لأن يُسْمَعَ أمرٌ ضروريّ. وهذا هو الدافع الأوّل.

ثانيًا: إنَّ مزيجًا من الغضب والعجز يُنْتج حاجةً ملحّةً إلى الضَّرب العشوائيّ. أنتَ غاضب. وتَشْعر بالضعف. وتريد أن تعاقِب. تريد أن تُنْزل بمَنْ ضَرَبَكَ عدالةً جزائيَّةً. تُخْبرنا تجاربُ العنف الذي يمارسه الفريقُ القويُّ أنَّها حوَّلت الضحايا إلى إرهابيِّين. فقد ثَبَت أنَّ الأطفال الذين تعرَّضوا للضرب يصبحون أهلاً يؤذون أولادَهم، ويَغْدون بالغين عنيفين. أنتم تَعْرفون ذلك. وهذا ما يَحْدث للشعوب وللدول: حين تُضْرب تَردُّ بالضرب. إنّ إرهاب الدولة غالبًا ما يَسْتَوْلِد إرهابًا جماعيّاً. أَتَذْكرون أنَّ اليهود لم يكونوا إرهابيِّين قبل الهولوكوست؟ لم يُعْرَفْ عن اليهود بشكل عامّ أنَّهم ارتكبوا الإرهابَ إلاّ أثناء الهولوكوست وبعدَها. وتبيِّن معظمُ الدراسات أنَّ غالبيَّة أعضاء أسوإ تنظيمَيْن إسرائيليَّيْن في إسرائيل أو فلسطين، وهما عصابتا السترن والإرْغون، كانوا مهاجرين من أكثر البلدان عداءً للساميَّة في أوروبا الشرقيَّة وألمانيا. وبالمِثْل، فإنَّ الشبّان الشيعة في لبنان، أو الفلسطينيِّين من مخيَّمات اللاجئين، هم شعبٌ مضروب. ولهذا يصبحون عنيفين جداً. إنَّ الغيتوات عنيفةٌ من داخلها. وتصبح عنيفةً ضدّ الخارج حين يكون هناك هدفٌ خارجيٌّ واضحٌ يُمْكن تعيينُه، عدوٌّ تستطيع الغيتواتُ أن تقول عندها: نعم، هذا هو الذي آذاني. ثم تَضْربه.

ثالثًا: إنَّ المثال أو القُدْوة أمرٌ سيِّئٌ. ذلك أنَّ المثال يَنتشر. فمثلاً تمّ الإعلانُ الواسعُ عن خطفِ طائرة TWA في بيروت. بعد هذا الخطف حصلتْ محاولاتُ خطفٍ في ٩ مطارات أميركيَّة مختلفة؛ فثمّة مجموعات أو أفراد يَقْتدون بآخرين. والمثالات الأخطر هي التي تقدِّمها الحكوماتُ. فحين تَنْخرط الحكوماتُ في الإرهاب تقدِّم

قُدواتٍ عُظْمى تُحْتذى. وحين تَنْخرط في مساعدة الإرهاب تقدِّم مجموعةً أخرى من القُدوات.

رابعًا: إنَّ غياب الإيديولوجيا الثوريَّة أمر مركزيّ في الإرهاب الذي تمارسه الضحيَّة. فالثوريُّون لا يَرْتكبون إرهابًا لاعقلانيّاً. ومَنْ كان منكم على أُلفةٍ بالنظريَّة الثوريَّة يَعْلَم السِّجالاتِ والنِّزاعاتِ والجدالاتِ والمعاركَ في صفوف المجموعات الثوريَّة في أوروبا، كالنزاع بين الفوضويِّين والماركسيِّين مثلاً. لكنَّ الماركسيِّين ما انفكُّوا يحتجُّون بأنَّ الإرهاب الثوريّ، إنْ قُيِّضَ للمرء أن يَشْترك فيه، يجب أن يكون انتقائيّاً على المستويَيْن السوسيولوجيّ والنفسيّ. لذا كانوا يَحضُّون على عدم خطف الطائرات، وعدم احتجاز الرهائن، وعدم قتل الأطفال - بحقِّ السماء! أوَتَذْكرون أنَّ الثورات العظيمة، كالثورة الصينيَّة والڤيتناميَّة والجزائريَّة والكوبيَّة، لم تَنْخرطْ أبدًا في إرهاب الخطف؟ صحيح أنَّها مارست الإرهاب، ولكنَّه كان انتقائيّاً إلى درجةٍ عالية، وسوسيولوجيّاً إلى حدٍّ كبير. لقد كان إرهابًا يَبْعث على الأسى، ولكنَّه كان ذا طبيعةٍ منظَّمةٍ ومحدودةٍ جداً وانتقائيَّة. خلاصةُ الأمر أنَّ غياب الإيديولوجيا أمرٌ مركزيّ في ظاهرة الإرهاب الضَّحَويّ.

سؤالي الأخير هو: هذه الظروف وُجدتْ منذ زمن طويل، فلماذا هذا الهيجانُ في الإرهاب السياسيّ الذي ينفِّذه أفرادٌ؟ لماذا هناك عملياتٌ كثيرةٌ من هذا النوع، ولماذا هي مرئيَّةٌ إلى هذا الحدّ؟ الجواب هو التكنولوجيا الحديثة. فأنتَ [الإرهابيُّ الفَرْد] ذو قضيَّة، وتَستْطيع أن تُوصلها إلى الآخرين من خلال الراديو والتلفزيون. سيتدفَّقون إليك إنْ أنتَ اختطفتَ طائرةً واحتجزتَ ١٥٠ رهينةً أميركيَّة. كلُّهم سيستمعون إلى قضيَّتكَ. في يدك سلاحٌ حديثٌ تستطيع أن تُطْلقَ منه مسافة ميلٍ كامل. هم لا يستطيعون أن يَصِلوا إليك. كما أنَّ لديك وسائلَ الاتِّصال الحديثة [التلفزيون والراديو]. وحين تَضَع القضيَّةَ، إلى جانب وسيلة القهر، وأداةِ الاتِّصال، تكون السياسةُ قد صُنِعتْ. صار نوعٌ جديدٌ من السياسة مُمْكنًا.

نصيحتي لأميركا

في مواجهة هذا التحدِّي مازال الحكّام في بلدٍ تلوَ البلد يَسْتَخْدمون الوسائلَ التقليديَّة، المتمثِّلة في إطلاق الصواريخ أو نحوها. الإسرائيليُّون فخورون جداً بذلك. وكذلك الأميركان. وبات الفرنسيُّون فخورين جداً كذلك. والآن الباكستانيُّون فخورون بذلك أيضًا، فهم يقولون: رجال الكوماندوس التابعون لنا هم الأفضل. ولكنْ، بصراحة، لن يَنْفع ذلك كلُّه. فثمّة مشكلةٌ مركزيَّةٌ في عصرنا، وهي أنَّ العقول السياسيَّة متجذِّرةٌ في الماضي، في حين أنَّ الأزمنة الحديثة تُنْتجُ حقائقَ جديدة. خلاصة الأمر، إذن، ما هي نصيحتي لأميركا؟

لم تأت قواتٌ أجنبيَّةٌ إلى السعوديَّة، حيث مكّة والمدينة، قبل ١٩٩٠

أولاً: تجنَّبي المعاييرَ المزدوجةَ القصوى. إذا كنتِ ستمارسين معاييرَ مزدوجةً، فستجازين بمعايير مزدوجة. لا تستخدمي هذه المعايير. لا تتغاضي عن الإرهاب الإسرائيليّ أو الإرهاب الباكستانيّ أو الإرهاب النيكاراغويّ أو الإرهاب السلڤادوريّ من جهة، لتعودي بعدها للتذمُّر من الإرهاب الأفغانيّ أو الإرهاب الفلسطينيّ من جهة ثانية. هذا التصرُّف لا يُجْدي. حاولي أن تكوني عادلة. لا يُمْكن قوةً عُظْمى أن تروِّج الإرهابَ في مكان وتتوقَّعَ - بكامل عقلها! - أن تثبِّطَ عزيمةَ الإرهاب في مكانٍ آخر. هذا أمرٌ لا يُجْدي نفعًا في هذا العالم المتقلِّص.

ثانيًا: لا تتغاضي عن إرهاب حلفائك. دينيهمْ. حاربيهمْ. عاقبيهمْ. ورجاءً، تجنَّبي وحاذِري العملياتِ السريَّةَ وأعمالَ الحرب «ذاتَ الحدَّة المنخفضة.» فهذه العمليّات تُنْتج أرضًا خصبةً للإرهاب وللمخدِّرات. إنّ العنف والمخدِّرات تُسْتَوْلَدُ هناك. لقد صنعتُ فيلمًا عن بنْية العمليّات السريَّة، عنوانُه «التعامل مع الشيطان،» وقد أحبَّه الناسُ في أوروبا كثيرًا. فيه بيَّنتُ أنَّه حيث تكونُ العملياتُ السرِّيَّةُ ثمّة مشكلةُ مخدِّراتٍ مركزيَّة. فبسبب بنْية هذه العمليّات السريَّة باتت أفغانستان وڤيتنام ونيكاراغوا وأميركا الوسطى أماكنَ مضيافةً لتجارة المخدِّرات. إذن، تجنَّبي هذه العمليّات. تخلَّيْ عنها. إنَّها لا تُجْدي نفعًا.

ثالثًا: رجاءً، ركِّزي على الدوافع، وساعدي في تحسينها. حاولي أن تنظري إلى الدوافع وأن تحلّي المشاكل. لا تركِّزي على الحلول العسكريَّة. لا تَسْعي وراء الحلول العسكريَّة. إنَّ الإرهاب مشكلة سياسيَّة. فاسْعي وراء الحلول السياسيَّة. الديبلوماسيَّة تُجْدي. خُذي مثالاً الهجومَ الأخيرَ على بن لادن [عام ١٩٩٨].(١) أنتِ لا تعلمين مَنْ تهاجمين.

الأميركان يقولون إنَّهم يَعْلَمون، ولكنَّهم لا يَعْلَمون. حاولوا قتلَ القذّافي، ولكنَّهم قتلوا ابنتَه ذاتَ الأعوام الأربعة. الطفلة المسكينة لم تَفْعل شيئًا، والقذافي مازال حيّاً يُرْزق. وحاولوا أن يَقْتلوا صدّام حسين، فقتلوا ليلى بن عطّار، وهي فنّانة بارزة وامرأة بريئة. ثم حاولوا أن يَقْتلوا بن لادن ورجالَه، فلم يمتْ واحدٌ منهم بل مات خمسةٌ وعشرون شخصًا آخرون. وحاولوا أن يدمِّروا

---

١ - للتفصيل تُراجع مقابلةٌ مع تشومسكي في الآداب ٩/١٠، ١٩٩٨. (م)

مصنعًا للمواد الكيميائيّة في السودان، والآن يُقِرُّون بأنّهم دمّروا مصنعًا بريئًا؛ نصفُ إنتاج الأدوية في السودان دُمِّر بفعل الضربة، ولم يُدمَّر مصنعٌ كيميائيّ. إنتِ يا أميركا لا تَعْلمين. تظنِّين أنّكِ تَعْلمين.

أربعةٌ من صواريخكِ سقطتْ في باكستان. واحدٌ أصيب بأضرارٍ طفيفة. واثنان دُمِّرا تمامًا. والأخيرُ سقط سليمًا. عشرة أعوام والحكومةُ الأميركيّةُ تُحاصِر باكستان لأنّ باكستان تحاول - وبحماقةٍ - أن تبنيَ أسلحةً نوويّةً وصواريخ، ففرضتْ أميركا حصارًا تكنولوجيّاً على بلدي. ولكنّ صاروخًا واحدًا بقي سليمًا. فماذا تظنُّون أنّ المسؤول الباكستانيّ الحكوميّ قال لـ **واشنطن پوست**؟ لقد قال: إنّ هذا الصاروخ هديّةٌ من الله [الجمهور يَضْحك]. قال: كنّا نريد التكنولوجيا الأميركيّة، والآن جاءتنا هذه التكنولوجيا، وعلماؤنا يَفْحصون هذا الصاروخ بعناية شديدة. إذن، الصاروخ سَقَطَ في الأيدي الخطإ. ولذا لا تفعلي ذلك. ابحثي عن الحلول السياسيّة لا العسكريّة؛ فهذه الأخيرة تسبِّب من المشاكل أكثرَ ممّا تَحُلّ.

رابعًا: رجاءً، حاولي أن تعزِّزي وأن تقوّي من هيكليّة القانون الدوليّ. كانت ثمّة مَحْكمةٌ جزائيّةٌ في روما، فلماذا لم يَذْهب الأميركان إليها أولاً لكي يَحْصلوا على تفويضٍ منها ضدّ بن لادن، إنْ كانت لديهم بعضُ الأدلّة؟ خذي تفويضًا، ثم لاحقيه. على المستوى العالميّ نفِّذي قرارات الأمم المتحدة. نفِّذي قرارات محكمة العدل الدوليّة. فهذه الأحاديّة تَجْعلنا نَبْدو أغبياء جدّاً، وتجعل كلَّ هذه المؤسَّساتِ الدوليّة تبدو أصغرَ مقارنةً بنا.

[انتهت محاضرةُ إقبال أحمد. وجاءت فترة الأسئلة. فسئل عن قصته مع بن لادن فأجاب:]

قال أحدُ الحاضرين إنّني ذكرتُ أنّني سأتطرّق إلى قصة بن لادن، وهو الرجل السعوديّ الموجود في أفغانستان، ولكنّني لم أفعلْ. وطَلَبَ منّي أن أُفَصِّل بعضَ الشيء. إنّ مغزى قصة بن لادن شبيهٌ تقريبًا بمغزى قصة الشيخ عمر عبد الرحمن، الذي اتُّهم ودِينَ بتشجيع نَسْف مركز التجارة العالميّ في مدينة نيويورك. ونشرتْ مجلّةُ **ذا نيويوركر** مقالاً طويلاً عنه. والمغزى هو نفسه مغزى قصة ايمَل كَنْسي، وهو الباكستانيّ البالوشيّ الذي دِينَ بقتل عميلَيْن في جهاز المخابرات المركزيّة الأميركيّة. فلأحاولْ أن أختصر هنا.

كلمة «الجهاد» ليست تمامًا كما تُرجمتْ آلافَ المرّة إلى الإنكليزيّة بـ «الحرب المقدّسة.» «الجهاد» كلمة عربيّة تعني الكفاح. قد يكون كفاحًا بالعنف، أوْ بغيرِ وسائلِ العنف. هناك نوعان: جهاد كبيرٌ وجهاد صغيرٌ. الجهاد الصغير يتضمّن عنفًا. وأمّا الكبير فصراعٌ مع الذات. ذكرتُ هذا لأنّ الجهاد كظاهرة عالميّةٍ عنفيّةٍ اختفى من التاريخ الإسلاميّ في الأعوام الأربعمئة الأخيرة، ولكنْ أعيد إحياؤه فجأةً بمساعدةٍ أميركيّةٍ في الثمانينيّات. فحين تدخّل الاتّحادُ السوفياتيّ في أفغانستان رأى ضياءُ الحقّ، وهو الديكتاتور العسكريّ لباكستان التي تتاخِم أفغانستان، فرصةً سانحةً لشنّ «الجهاد» هناك ضدّ الشيوعيّة الملحدة. ورأت الولاياتُ المتحدة فرصةً جاءتها من اللّه لتعبئةِ مليار مسلم ضدّ ما أسماه ريغان «إمبراطوريّةَ الشر.» فبدأت الأموالُ الأميركيّةُ بالتدفُّق. وشرع عملاءُ المخابرات المركزيّة الأميركيّة بالذهاب إلى جميع أنحاء العالم الإسلاميّ لتنظيم النّاس ليحاربوا في معركة الجهاد العظيمة. كان بن لادن واحدًا من أفضل المجنَّدين الأوائل. لم يكن عربيّاً فحسب، بل سعوديّاً أيضًا. ولم يكن سعوديّاً فقط، بل مليونيرًا كبيرًا وعلى استعداد لأن يَدْفع مالَه الخاصّ لدعم القضيّة. وراح بن لادن يجول في المنطقة ينظِّم الناسَ لـ «الجهاد» ضدّ الشيوعيّة.

التقيتُ بن لادن أوّلَ مرّةٍ عام ١٩٨٦. كان قد نصحني بلقائه مسؤولٌ أميركيٌّ لا أعلم إنْ كان عميلاً [للمخابرات الأميركيّة] أم لا. كنتُ أتحدّثُ مع هذا المسؤول، فقلتُ: «مَنْ هم العربُ هنا المثيرون جدّاً للاهتمام؟» وقصدتُ بـ «هنا» أفغانستان وباكستان. أجاب: «عليكَ بلقاءِ أسامة.» ذهبتُ لرؤية أسامة. هناك كان: غنيّاً، يأتي بالمجنَّدين من الجزائر، من السودان، من مصر، مثله مثل الشيخ عبد الرحمن. هذا الرجل كان حليفًا لأميركا. وبقي حليفًا لها. ولكنّه تحوّل عنها في لحظةٍ محدَّدة. ففي عام ١٩٩٠ ذهبت الولاياتُ المتحدة بقوّاتها المسلَّحة إلى السعودية. والسعوديّة هي حيث مكة والمدينة المقدّستان لدى المسلمين. لم تأتِ قواتٌ أجنبيّةٌ إلى هناك من قبل، ولكنّها ذهبتْ عام ١٩٩٠ أثناء حرب الخليج باسم مساعدة السعودية في هزيمة صدّام حسين. آنذاك بقي بن لادن صامتًا. هُزِم صدّام، غير أنّ القوات الأميركيّة بقيتْ في أرض الكعبة. فكَتَبَ بن لادن رسالةً تلوَ الأخرى يقول: «لِمَ أنتم هنا؟ أُخْرجوا! لقد جئتم لتساعدوا، ولكنّكم بقيتم.» وفي نهاية المطاف بدأ بن لادن الجهادَ ضدّ المحتلِّين الجدد. والمهمّة الجديدة التي نَذَر نفسَه لها هي إخراج القوات الأميركيّة من السعوديّة. وكانت مهمّته الأولى هي إخراج القوات الروسيّة من أفغانستان. أرأيتم ما عنيتُه سابقًا حين تحدّثتُ عن العمليّات الأميركيّة السريّة؟

النقطة الثانية التي يجب أن نَذْكرها عن بن لادن هو أنّه من شعبٍ قَبَليّ. لا يهمّ إنْ كان مليونيرًا. فأعْرافُهم الأخلاقيّة هي أعرافٌ قبليّة، وتتلخّص بكلمتين: الوفاء والثأر. أنتَ صديقي، فاحْفَظْ عهدكَ أكنْ وفيّاً لك. فإذا خنتَ عهدكَ سلكتُ طريقَ الثأر. وبالنسبة إلى بن لادن، أميركا خانت عهدَها. لقد خانه الصديقُ الوفيُّ. خانكَ ذاك الذي حلفتَ بدمكَ أن تكون وفيّاً له. ولهذا سيَلْحقكِ، هو وإخوانه، يا أميركا. بل سيفعلون ما هو أعظمُ بكثير. فهؤلاء هم دجاجُ حربِ أفغانستان يعودون إلى قُنِّهم! ولهذا قلتُ بضرورة توقُّفِ العمليات السريّة. فهناك ثمنٌ مرتبطٌ بهذه العمليات لا يستطيع الشعبُ الأميركيُّ حسبانَه، ولا يُدْركه مَنْ كان مِن طينة كيسنجر لأنّه لا يَمْتلك معرفةً بالتاريخ تؤهّله لذلك.

كولورادو